

تفسير ابن كثير

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ^ج إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

ولهذا قال تعالى : (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدا مدة سبعة أيام لا يمكنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا [كلهم] تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ، ولها ووهجا عظيما ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم ؛ ولهذا قال : (إنه كان عذاب يوم عظيم) . وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا : (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعودن في ملتنا) [الأعراف : 88] ، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفي سورة هود قال : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) [هود : 94] ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم : (

أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم
الرشيد) [هود : 87] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة
تسكتهم ، فقال : (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) وهاهنا قالوا : (فأسقط علينا كسفا من
السماء إن كنت من الصادقين) على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما
استبعدوا وقوعه . (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) . قال قتادة : قال
عبد الله بن عمر رضي الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه
شيء ، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم واستظل بها ، فأصاب تحتها بردا
وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعا ، فاستظلوا تحتها ، فأجبت عليهم نارا . وهكذا
روي عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم . وقال عبد الرحمن بن
زيد بن أسلم ، بعث الله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلة ،
وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلَى . وقال محمد بن كعب
القرظي : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم
حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت

فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كالיום
ظلا أطيّب ولا أبرد من هذا . هلموا أيها الناس . فدخلوا جميعا تحت الظلة ، فصاح بهم
صيحة واحدة ، فماتوا جميعا . ثم تلا محمد بن كعب : (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه
كان عذاب يوم عظيم) . وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثني الحسن ، حدثني
سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثني حاتم بن أبي صغيرة حدثني يزيد الباهلي :
سألت ابن عباس ، عن هذه الآية (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم)
قال : بعث الله عليهم ومدة وحرا شديدا ، فأخذ بأنفاسهم [فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم
أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم] فخرجوا من البيوت هرابا إلى البرية ، فبعث الله
سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم بعضا ، حتى إذا
اجتمعوا تحتها أرسلها الله عليهم نارا . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان
عذاب يوم عظيم .